الباب الثالث

التوحيد بأقسامه
وشروطه وأركانه

obeikandl.com

obeikandl.com

التوحيد

تمهيد في التوحيد

يقول الله ﷻ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النساء: ٣٦].

أمر الله سبحانه في هذه الآية الكريمة بوجوب عبادته وتوحيده، وعدم الإشراك به، وقد ورد في هذه الآية الكريمة لفظ «شيئاً»، وجاء هذا اللفظ في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال:

ما الموجبتان؟ فقال عليه السلام: **«من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك به شيئاً دخل النار»**[(١)].

ولبيان لفظ «شيئاً» ذكر ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ يأمر الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق، المنعم، المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته [(٢)] وقوله (شيئاً) نكرة في سياق النهي فتعم كل شيء لا نبياً ولا ملكاً، ولا ولياً بل ولا أمراً من أمور الدنيا والآخرة، فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عبداً لها [(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣).

(٢) تفسير ابن كثير، ج ١ النساء آية ٣٦.

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن العثيمين، ج١ ص ٢٢.

وخلاصة تأويل لفظ (شيئاً) يتضمن في فحواه الصغير والكبير من الذرة التي لا ترى بالعين المجردة، إلى أكبر شيء خلقه الله تبارك وتعالى.

ذكر ابن كثير أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحجر: آية ٢١].

إنه مالك كل شيء وإن كل شيء سهل عليه، وإن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف[١]، وذكر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: آية ٤٤].

أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمده[٢]، ذكر البيضاوي في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [سورة الحجر: آية ٢١] أي ما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما هو منه، وشبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة [٣]، وذكر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: آية ٤٤] أي ينزهه عن ما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال، حيث تدل مكانتها وحدوثها على الصانع القديم [٤]، فالآيتان بينتا تسبيح جميع المخلوقات الظاهرة والخفية الكبيرة والصغيرة، وقدرة الله المطلقة في خلق الأشياء من العدم إلى الإيجاد التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة.

وبناءً على ذلك يقتضي على كل مكلف معرفة معنى لا إلٰه إلا الله، بأركانها وشروطها، لأنها الركن الأول من أركان الإسلام،

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٢ سورة الحجر آية ٢١.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٢، سورة الإسراء، آية ٤٤.

(٣) تفسير البيضاوي، ج ٣، سورة الحجر، آية ٢١.

(٤) تفسير البيضاوي، ج ٣، سورة الإسراء، آية ٤٤.

وعليها ترتكز شعائره، وبدونها تحبط الأعمال.

أولاً: معنى لا إله إلا الله

أي لا معبود إلا الله [1] كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج: آية ٦٢] معنى الإله: أما كلمة (إله) فيراد بها المعبود وهي تستعمل بمعنى المعبود بحق أو بباطل.

وكلمة (الإله) في اللغة هي المعبود، مشتقة من أله يأله إلاهة، بمعني عبد يعبد عبادة، والإله بوزن (فعال) بمعنى (مفعول) أي معبود [2].

وأما شرعاً: قال ابن القيم عن لفظ الإله: (الإله هو المألوه، المعبود لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الكمال، ولفظ الجلالة الذي هو (الله) علم على ذاته سبحانه وهو أعرف المعارف على الإطلاق)[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [سورة الجاثية: آية ٢٣] ذكر ابن كثير في تفسيره عن هذه الآية: قال مالك رحمه الله (لا يهوى شيئاً إلا عبده)[4].

قال ابن رجب الحنبلي: (الإله هو الذي يطاع ولا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً وسؤالاً منه ودعاءً له ولا يصلح هذا كله إلا لله، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإله كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قوله: «لا

---

(١) العقيدة الصحيحة، عبد العزيز بن باز، ص ٧.

(٢) تفسير توضيح لا إله إلا الله، دز حمدان الراجح، ص ٢٠.

(٣) الكواشف الجلية للسلمان، ص ١٩.

(٤) تفسير ابن كثير، ج ٤، الجاثية، آية ٢٣.

إله إلا الله».

وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك [1] كقوله عليه الصلاة والسلام: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة**»[2] ولكلمة الإخلاص أركان وشروط، فأما أركانها فاثنان وهما: نفي وإثبات.

وحدّ النفي من الإثبات (لا إله) أي نافياً جميع ما يعبد من دون الله، والإثبات (إلا الله) أي مثبتاً العبادة لله وحده، لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه.

وأما شروطها:

١ ـ العلم بمعناها نفياً وإثباتاً في قوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: آية ١٩].

٢ ـ اليقين أي استيقان القلب بها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [سورة الحجرات: آية ١٥].

٣ ـ الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [سورة البينة: آية ٥].

٤ ـ المحبة، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

٥ ـ الصدق: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر: آية ٣٣][3].

---

(١) الفرقة الناجية، لمحمد زينو، ص ٤.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو.

(٣) تفسير وتوضيح لا إله إلا الله محمد رسول الله، محمد الراجح، ص ٢١.

٦ ـ الانقياد إلى الله ﷻ ظاهراً وباطناً، في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة الزمر: آية ٥٤].

٧ ـ القبول لها، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة لقمان: آية ٢٢][1].

ثانياً: التعريف بأقسام التوحيد الثلاث

(الألوهية ـ الربوبية ـ الأسماء والصفات).

لقد بعث الله الأنبياء والمرسلين، يجتهدون على قلوب البشرية بوسيلة الدعوة وذلك لإفراد الله تعالى بالعبادة وحده بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

توحيد الألوهية: هو العلم والاعتراف بأن الله تعالى ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين لله وحده.

توحيد الربوبية: هو اعتقاد العبد أن الله تعالى هو الرب المتفرد بالخلق والتدبير، الذي ربى جميع الخلق بأصناف النعم، وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة.

توحيد الأسماء والصفات: هو اعتقاد انفراد الله تعالى بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال، ويكون ذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه، وما أثبته له رسول الله ﷺ من

---

(١) الكواشف الجلية للسلمان، ص ٣٥.

الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة[1].

ومن خلال التوضيح لمعنى لا إله إلا الله والتعريف بأقسام التوحيد الثلاثة أسوق بعض أقوال أهل العلم حول توحيد الأسماء والصفات، ثم أبين شرح مفصل لأقسام التوحيد الثلاثة بأسلوب خطابي، وبعده الباب الرابع والذي أذكر فيه عن الإخلاص والسنة وأثر التوحيد على الأمة الإسلامية.

ثالثاً: مختصر من أقوال السلف في الأسماء والصفات

(١) إن دعوة السلف الصالح في إثبات الأسماء والصفات بالإيمان المطلق بأنه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون، في أسمائه وآياته، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه لا سميّ له، ولا كفواً له، ولا نداً له.

قال الشافعي رحمه الله: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: نؤمن بها ونصدق ولا نرد شيئاً، ونعلم أن ما جاء به الرسول عليه السلام حق وصدق، ولا نرد على رسول الله ﷺ ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حدود ولا غاية[2].

وهو الإيمان بكل ما ورد في القرآن الكريم والحديث الصحيح من صفات الله التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله على الحقيقة من غير

---

(١) الكواشف الجلية للسلمان ص ٤١٧.

(٢) الكواشف الجلية للسلمان ص ٩٠.

تأويل، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تشبيه أو تحريف[1].

(٢) آيات وأقوال عامة في الأسماء والصفات.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٨٠].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بأعرابي وهو يدعو في صلاته ويقول:

«يا من لا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، وما توارى من سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا بحر ما في قعره ولا جبل ما في وعره، اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه»[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[3].

---

(١) منهاج الفرقة الناجية لمحمد زينو، ص ١٩.

(٢) أخرجه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن الأذرمي، وهو ثقة، انتهى.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، كل حبة في بطن الأرض يفلقها رب الأرض والسماء فيخرج منها شيئاً كان مستوراً، يفلق الحب فيخرج منه النبات، ويفلق الليل فيخرج منه النهار، ويفلق النهار فيخرج منه الليل، يخرج المستور من الستور لا إله إلا هو ولا رب سواه، وهو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات وأحاط سمعه بجميع المسموعات، لا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفعك عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه مجهول ولا معلوم، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم.

ولا يقال حيث ولا كيف ولا يستفتح له وجود: فيقال متى كان، ولا ينتهي له بقاء فيقال استوفى الأجل والزمان، ولا يقال: لم فعل ما فعل، إذ لا علة لأفعاله، ولا يقال ما هو إذ لا جنس له فيتميز بأمارة من صفاته، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، يفعل ما يريد ويذل لحكمه العبيد، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق به القضاء، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون، ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه وختم الأنبياء بمحمد عليه الصلاة والسلام وحفظ بيضة الإسلام وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٣][1].

حدِّد بصر الإيمان تجد علم الله وتدبيره عند كل شيء ومع كل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء وقريباً من كل شيء ومحيطاً بكل شيء بقربٍ هو وصفه وبحيطةٍ هي نعته، وهو المنزه عن الظرفية

(١) الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري، المتوفى سنة ٤٦٥هـ، ص ٢٠.

والحدود، وهو الذي أمحق الكل بأحدية ذاته بوصفه:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد: آية ٣،٤] (١).

والله هو هو، كان الله ولا شيء معه وهو على ما كان قبل خلق المكان:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [سورة طه: آية ٥].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: آية ١١].

فهو الأول ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء والظاهر وليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهي تنقسم إلى قسمين: زمانية ومكانية، فأحاطت أوليته بالقبل وأحاطت آخريته بالبعد وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، فالأول قدمه والآخر بقاؤه ودوامه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه وفي قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٩] من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض (٢).

---

(١) إيقاظ الهمم لأحمد الحسني التطواني، المتوفى سنة ١٢٢٤هـ، ص١٣٨.

(٢) الكواشف الجلية، ص ١٢٨ وشرحها مفصلة من كتاب طريق الهجرتين، لأبي عبد الله بن القيم الجوزية، في باب توجيه العبد جميع أحواله إلى الله، ص ٢٤، وبتصرف.

obeikandl.com

الأسلوب الخطابي
لأقسام التوحيد الثلاث

obeikandl.com

obeikandl.com

الأسلوب الخطابي لأقسام التوحيد الثلاث

● **على خمسة عوامل:**

١ ـ نفي عبادة الأصنام والأحجار.

٢ ـ نفي عبادة الكون.

٣ ـ نفي المعتقدات الفاسدة للأمم السابقة.

٤ ـ البراءة من الحول والقوة إلى حول الله وقوته.

٥ ـ نصائح عامة حول أقسام التوحيد الثلاث.

أولاً: نفي عبادة الأصنام والأحجار والأشجار:

قامت دعوة الأنبياء على طمس ونفي المعتقدات الباطلة حينما اصطدمت بتلك البشرية التي اتجهت لعبادة الأصنام والأحجار، وإثبات أنها خلق من خلق الله لا تضر ولا تنفع، وأن النبي ﷺ ظهر كذلك في أناس متفرقين في عبادتهم فمنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين والأولياء بدعائهم والاستغاثة بهم، والتوسل بهم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [سورة الإسراء: ٥٧] ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ويتبرك بالعكوف والتعبد عندها ويتبرك بأستارها وترابها، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [سورة النجم: آية ١٩،٢٠] وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم والدليل

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال: آية ٣٩].

قال سبحانه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: آية ٩٥، ٩٦].

وقال سبحانه إخباراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: آية ٤٢].

وقال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الأنبياء: آية ٥٧].

ذكر ابن كثير في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [سورة نوح: آية ٢٣].

ذكروا أن ودًّا كان رجلاً مسلماً وكان محبباً في قومه، فلما مات اعتكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فتشبه لهم إبليس في صورة إنسان فقال: هل لكم أن أصور لكم مثله فتذكروه؟ قالوا: نعم، فصور لهم مثله حتى اتخذوه إلٰهاً من دون الله، فكان أول صنم عبد من دون الله كان اسمه وداً.

وذكر ابن كثير في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [سورة نوح :آية ٢٤] يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً: فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى أيامنا هذه في العرب والعجم وسائر صنوف البشر [1].

وذكر البيضاوي في تفسيره في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قيل: هي أسماء رجال صالحين من آدم ونوح عليهما السلام، فلما ماتوا صوروا تبركاً بهم، فلما طال الزمان عبدوا من دون

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، [سورة نوح: آية ٢٣].

الله، وقد انتقلت إلى العرب فكان ود لكعب، وسواع لهمدان، ويغوث لمدحج، ويعوق لمراد، ونسراً لحمير[1].

الدليل من السنة:

من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينيطون بها أسلحتهم، يقال لها «**ذات أنواط**» فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم**» أي النصارى واليهود[2].

وعن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران قال عليه الصلاة والسلام: «**يا حصين كم تعبد من إله**»، قال سبعاً في الأرض وواحداً في السماء، قال ﷺ: «**فإذا أصابك الضر من تدعو**»، قال الذي في السماء»[3].

هذه دعوة الأنبياء في إثبات العبادة الخالصة لله وحده، ومن الواقع الذي نعيشه تبين أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركي زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: آية ٦٥].

---

(١) تفسير البيضاوي، ج٦ [سورة نوح، آية ٢٣].

(٢) أخرجه الترمذي وصححه ومسند الإمام أحمد (٥/٢١٨) والترمذي ٦/٣٤٣ فقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن خزيمة كذا في الإصابة ج١، ص ٣٣٧، حياة الصحابة ص ١٠٧.

لذا نرى كثيراً ممن يعبدون الأولياء وأضرحة المشايخ والسادة يخلصون في الشرك بدعائهم والاستغاثة بهم في حالة الشدة والرخاء، بل إن بعضهم ليزداد في الشرك كلما اشتد به البلاء، فلا حول ولا قوة إلا بالله وهو يهدي السبيل.

ثانياً: نفي عبادة الكون

وهي ما تسمى بمصطلح العصر (الطبيعة) حيث اجتهد أهل الباطل لدس سموم الشرك والخرافات بين المسلمين عن طريق وسائل الإعلام وبرامج الأطفال وغيرها لتضليل كثير من المسلمين عن معتقدهم الصافي بأن الطبيعة تفعل وتغير وتبدل في الكون.

فالتدبير والخلق لله جميعاً، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [سورة الزمر: آية ٦٢ ـ ٦٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [سورة فصلت: آية ٣٧].

الدليل من السنة

عن زيد ابن خالد رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف، أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**أصبح من عبادي مؤمن وكافر، من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (أذان ١٥٦)، (استسقاء: ٢٨)، (توحيد: ٣٥)، ومسلم (إيمان، ١٢٥).

ذكر أحمد ابن عطاء في شرح الحديث: فيه فوائد عظمى للمؤمنين وبصيرة كبرى للموقنين، وتعليم الأدب مع رب العالمين، ولعل هذا الحديث يكون أيها المؤمن ناهياً لك عن التعرض إلى عالم الكواكب واقتراناتها، ومانعاً لك أن تدعي وجود تأثيراتها، واعلم أن لله فيك قضاء لابد أن ينفذه وحكماً لابد أن يظهره، فما فائدة التجسس على علم علام الغيوب، وقد نهانا أن نتجسس على عباده فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات: ١٢] انتهى كلامه[١].

أمثلة على قدرة الله وتدبيره لخلقه

إن الله سبحانه خلق الكون بقدرته وحكمته وإرادته، فهو الخالق وكل ما عداه مخلوق، فلا يتحرك ساكن ولا يسكن متحرك إلا بأمره، وكل خلق من خلقه محتاج إليه، وهو لا يحتاج إلى أحد من خلقه فهو الصمد، وهو سبحانه خلق الأشياء من العدم وجعل في الأشياء خواصها، والأشياء وخواصها محتاجة ومفتقرة إليه.

ومثال ذلك: خلق آدم من تراب خلاف السببية من غير أم وأب، وخلق حواء من ظهر آدم خلاف السببية في إخراج الأجنة من الأم، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب خلاف السببية في مسألة النكاح والاتصال الجنسي، وخلق الإنسان من أم وأب تبعاً لسنته وسببيته، وهو الزواج الشرعي، وخلق خلقاً في البحر وخلق خلقاً في البر، فالخلق الذي في البحر لا يستطيع أن يعيش في البر والعكس كذلك، ولكنه خالق الأسباب فقدرته فوق الأسباب وفوق سنته، فخلق مخلوقات تعيش في البر والبحر تسمى برمائية، فأمره لا يخلو من الحكمة فهو الحكيم، ومن سنته نبت الأشجار من الماء لكنه لا يحتاج الماء في

---

(١) التنوير في إسقاط التدبير، ٦٩.

إخراج النبات، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ [سورة الصافات: آية ١٤٦].

فهو أنبتها وأخرجها بدون الماء عندما قذف الحوت يونس عليه السلام على ساحل البحر، قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ هي الأرض التي ليس بها نبت ولا ماء[1] وهو الذي أخرج من الحجر الأصم ناقة من دم ولحم وعظم جلت قدرته وعظمته.

وهو قادر على أن ينزل من السحاب خلاف المطر، فعندما أهلك قوم مدين قال سبحانه عنهم: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [سورة الأحقاف: آية ٢٤].

ثالثاً: حركة الكون تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى

فقدرة الله ليس لها بداية وليس لها نهاية، فهذا الكون الذي أبدعه الله بقدرته وإرادته لا يتحرك ولا يسكن إلا بأمره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [سورة يس: آية ٤٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [سورة الأعراف: آية ٥٤].

انظر السماء وارتفاعها بناها بغير عمد ترونها قبة زرقاء ما تغير ولا تبدل لونها.

---

(١) تفسير ابن كثير، الصافات آية ١٤٥.

قال سبحانه وتعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة البقرة: آية ١٣٨].

وانظر - رحمني الله وإياك - إلى الأفلاك ومدارها والشمس وشعاعها، والأرض واتساعها والبحار وأمواجها وما هو ظاهر وكامن وما خفي وما ظهر، الكل يشهد بجلاله ويقر بكماله ويعلن بذكره ولا يغفل عن شكره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: آية ٤٤].

رابعاً: نفي المعتقدات الفاسدة للأمم السابقة

بعث الله الأنبياء يجتهدون على قلوب البشرية بتوحيد الله وإفراده بالعبادة وحده وعدم التعلق بحطام الدنيا، ويرغبونهم بما أعد الله لهم في دار الكرامة من النعيم، ويخوفونهم من بطشه وعقابه في دار الجحيم، وأن أسباب السعادة والعزة والتمكين ليست بالأشياء الظاهرة التي يتعايشون فيها ويشعرون بها من مال وزراعة وتجارة وقوة ورياسة وغيرها، بل هي الصلة بالله تعالى وامتثال أوامره واتباع أنبيائه.

والأنبياء يجتهدون بدعوتهم على تغيير اليقين المشاهد على ظواهر الأشياء المحسوسة باليقين الغيبي على وعد الله ووعيده، حتى يعيش البشر في الحياة الدنيا متجردين ومتيقنين عليه ويأخذون بالأسباب التي وهبها لهم.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة لقمان: آية ٢٠] فأمرهم بالكسب والمعايشة للوصول إلى معرفته وشغل القلب بذكره وعبادته.

(١) إثبات الأخذ بالأسباب مع عدم التيقن عليها

فالله الذي أقامنا في الحياة الدنيا لتوحيده أرشدنا للأسباب التي تقربنا لعبادته وحده.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**الأخذ بالأسباب سنة، وترك الأسباب بدعة، والاعتماد على الأسباب شرك بالله ﷻ**»[١].

ويقول أبو الفضل أحمد بن عطاء: «**إن من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل... إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية**»[٢].

(٢) تحذير القرآن للأمة الإسلامية من معتقدات الأمم السابقة

لقد بسط القرآن قصص الأمم السابقة تحذيراً للأمة من أن تتيقن أو تعتقد بأن الأسباب الدنيوية الظاهرية سبب للعزة والفلاح، كاعتقاد فرعون وقارون ونمرود وقوم سبإ وعاد وثمود... الذين أدى بهم ذلك اليقين الفاسد إلى جحود الله وإنكار البعث والنشور وقتل الأنبياء وإراقة الدماء وسلب الأموال والحريات وانتهاك الأعراض، بذلوا أنفسهم في تحصيلها لأن الاعتقاد فيها أوصلهم إلى ذلك البغي بغير الحق والقاعدة تقول: «**الحكم بالشيء فرع عن تصوره**»[٣].

والحكمة تقول: «**اجتهادك في ما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك**»[٤].

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية، باب التوكل.
(٢) الحكم العطائية، ص ٣.
(٣) نظرة علمية، أيمن شادي، ج٣ ص٢٥.
(٤) الحكم العطائية، ص١٥.

ذكر أحمد ابن عجيبة في شرح الحكمة السابقة: «**الجهد هو استفراغ الوسع والطاقة لنيل المقصد، والتقصير هو الإفراط مع التضييع، والبصيرة ناظر القلب، والبصر ناظر القالب، البصيرة لا ترى إلا المعاني، والبصر لا يرى إلا المحسوس، البصيرة لا ترى إلا اللطيف، والبصر لا يرى إلا الكثيف، البصيرة لا ترى إلا قدرة المكون والبصر لا يرى إلا الأكوان، فإذا أراد الله بعبد خيراً جعله بالظاهر بخدمته والباطن بمحبته فينطمس نور البصر بنور البصيرة فلا يرى إلا حقاً، وإذا أراد الله بعبد خذلاناً جعله بالظاهر بخدمة الأكوان وبالباطن بمحبتها فينطمس نور البصيرة بنور البصر فلا يرى إلا باطلاً**»" انتهى كلامه[1].

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الروم: آية ٧].

(٣) وجوب شكر نعمة المنعم وإحسانه

ولمّا غفلوا عن الآخرة بنعيمها وعذابها وانهمكوا في طلب الدنيا انطمست بصائرهم عن الحق فكفروا نعمة الله وإحسانه ولم يؤدوا شكرها لله.

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: آية ٧] عن أبي خباب عن عطاء بن أبي رباح قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجباً؟ إنه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي، أو قالت: لحافي، ثم قال: «**يا بنت أبي بكر دعيني أتعبد**

---

(١) إيقاظ الهمم، ص١٥٥.

لربي» فأذنت له فقام إلى قربة من ماء فتوضأ وأكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى، ثم سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»؟ وقد أنزل علي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤][1].

قال القشيري عن الشكر: حقيقة الشكر عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وعلى هذا القول: يوصف الحق سبحانه بأنه شكور توسعاً ومعناه: إنه يجازي العباد على الشكر، فسمي جزاء الشكر شكراً كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقيل: شكره تعالى إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير، من قولهم دابة شكور: إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف، ويحتمل أن يقال: حقيقة الشكر: الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه، ثم إن إحسان العبد: طاعته لله تعالى، وإحسان الحق إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له سبحانه، وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نطق اللسان وإقرار القلب بنعمة المنان والجوارح بالعمل بالأركان، وقيل الشكر: التلذذ على ما لم يستجوبه من عطائه، وقيل الشكر أن لا يستعان بشيء من نعم الله تعالى على معاصيه بمثال شكر العينين: أن تستر عيباً تراه بصاحبك، وشكر الأذنين أن تستر عيباً تسمعه ـ انتهى كلامه[2].

فالواجب على الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة حسية أو معنوية أن يعرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقاً واعتقاداً، فالنطق

---

(١) أخرجه البخاري (تهجد ٦) (٤٨، ٢) ومسلم ٧٩ ـ ٨١، والترمذي (صلاة: ١٨٧).

(٢) الرسالة القشيرية، ص٢١٠.

بالحمد والشكر لله باللسان، والاعتقاد شهود نعمة المنعم بالإحسان وإسنادها إليه والغيبة عن الواسطة مع شكرها باللسان والجوارح بالأعمال[1].

وعن شكر اللسان، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [سورة الضحى: ١١].

وعن شكر القلب، قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: آية ٥٣].

وعن شكر الجوارح، قال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سورة سبأ: ١٣].

(٤) أمثلة من القرآن على نفي المعتقدات الفاسدة للأمم السابقة

١ ـ فكر قارون في التيقن على العزة بالأموال:

ففي القرآن الكريم قصص وعبر وأمثلة عديدة على المعتقدات الباطلة للأمم السابقة وتحذيراً ورحمة لهذه الأمة الإسلامية لكي لا تسلك المنهاج الباطل الذي سلكته تلك الأمم مما أوردها الهلاك والشقاء في الدارين.

فضرب لنا مثلاً بقارون، ذلك الرجل الذي تيقن واعتقد على جمع الأموال وأن بها العزة وتحقيق السعادة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [سورة القصص، آية ٧٦].

ذكر ابن كثير في تفسيره: ـ ليثقل حملها على الفئام من الناس لكثرتها، وقال أن كل مفتاح مثل الأصبع، فإذا ركب حملت على

---

(١) إيقاظ الهمم، ص١١٨.

ستين بغلاً محجلاً. انتهى كلامه[1].

فكان أن اغتر بنظرته القاصرة وانطماس بصيرته على تلك الأموال التي جمعها.

قال تعالى: ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة القصص: آية ٧٩].

فخرج على قومه في موكبه وزينته والناس ينظرون إليه يختال في مشيته ويتباهى في حلته إظهاراً لأفضليته عليهم، فانظر كيف كان جزاؤه!

(٥) انقسام الناس إلى قسمين بنظرة الدنيا حسب تمكن التوحيد من القلب

القسم الأول:

فريق تعود على النظرة القاصرة في تحصيل الدنيا والشغف في حبها والتمتع بزخارفها، كما هو حال كثير من الناس في أيامنا هذه، يقولون مثلما قال الذين يريدون الحياة الدنيا: لو أن لنا من الدنيا مثل كذا وكذا فتتحقق لنا السعادة وتكون لنا العزة بين الناس: ولم يتفكروا في تحصيل الإيمان فانساقوا وراء شهوات الدنيا بالحلال والحرام، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: آية ٤٧ ـ ٤٩] فأي عزة يبحث عنها الإنسان حتى تجعله لا يبالي بأحكام الله وأوامره ونواهيه فترديه إلى أشد العذاب؟.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، سورة القصص، آية ٧٦.

القسم الثاني:

الذي أقام نفسه على التوحيد وشكر نعمة المنعم في السراء والضراء ونظر إلى حقيقة الدنيا بأنها عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل يحق الحق ويبطل الباطل.

فلما سمع هؤلاء الذين يزنون الدنيا بميزان الشرع ما قاله أهل الدنيا ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [سورة القصص: آية ٧٩].

ذكَّروهم بالله بقولهم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [سورة القصص: آية ٨٠] قال ابن جرير: ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الآخرة[1].

(٦) مصير قارون ونهايته بسبب المعتقد الباطل

معتقد فاسد وفكر دانٍ أورد قارون خسارة الدارين بيّنه تعالى بقوله: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة القصص: آية ٨١].

وتحذيراً للأمة الإسلامية حتى لا تسلك الطريق الذي سلكه قارون من حب الأموال والتيقن عليها قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ٣٤ ـ ٣٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة القصص، ج٣، آية٨٠.

(٧) النظم والرياسة كانا سبباً في ادعاء الربوبية والألوهية:

لقد بين القرآن الكريم عبرة للموقنين وبصيرة للمؤمنين من قصة فرعون والنمرود بأن الملك والرياسة وحب السيادة في الأرض كان سبباً في هلاكهم، فاعتقدوا أنهم بأنظمتهم يسيطرون على الشعوب ويغيرون ويبدلون، وأنهم على الإماتة والإحياء قادرون، قال سبحانه عن نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥٨] وعلى لسان فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة الأعلى: آية ٢٤] وبين سبحانه وتعالى عن فرعون بأن الملك والرياسة كان سبباً في تكبره وادعائه للربوبية والألوهية قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥١].

ولقد حذر القرآن الكريم من الوقوع في الولاية البشرية أو ما يسمى: عبادة الكبراء على طمس أحكام الشريعة، وهذه الموالاة التي لها اتصال مباشر بقضية التقليد والخوف والرجاء لغير الله، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [سورة الأحزاب: آية ٦٧].

فكثير من الناس يقع في هذا المرض العضال وينحرف عن الطريق المستقيم وذلك بسبب جهله أو ارتباطه الوثيق بهذه الفئة من البشر، وهذه الرابطة التي تؤدي إلى الاغترار ببعض الشخصيات التي تحاول الأخرى جاهدة أن تستولي على نفوس بعض الأفراد، وتؤثر على فكرهم وإرادتهم، مما يرفعه إلى درجة الشعور بالتأله فيفقد الآخر شخصيته واستقلاله الفكري والإرادي، ويصبح مجرد آلة أو بوقاً يتحدث باسم هذه الشخصية ومطيعاً لساداته وكبرائه الذين يضلونه عن سبيل الله، والإسلام يريد أن يرتفع بالإنسان من هذا المستوى الداني إلى العبودية المطلقة لله ﷻ، قال علي رضي الله عنه: «**اعرف الحق تعرف**

أهله واعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال»[1].

(٨) النظم والرياسة في خدمة الشعوب

إن الله جل وعلا جعل الملك والرياسة في خدمة الإنسانية، وذلك لتنظيم الحياة الدينية وما يتبعها من النواحي الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، فقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٣٢].

ولقد أوضحت الآية الكريمة أن المفارقة التي تكون بين الناس بالدرجات الدنيوية ما هي إلا تسخير للخدمة البشرية بعضها لبعض وفقاً لضوابطها الشرعية التي بينها الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: آية ٧].

ولقد أخطأ فرعون ومن شاكله طريق الاعتقاد بالنظرة القاصرة على أسباب الملك والرياسة مما أورده ذلك المعتقد الخسارة والهلاك في الدارين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الزخرف: آية ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة غافر: آية ٤٦].

(٩) تحذير القرآن للأمة الإسلامية من معتقد قوم سبأ

ولقد بين القرآن الكريم عن قوم سبأ بأنهم تيقنوا على أسباب الزراعة فاستفرغوا جهودهم في تحصيلها، فأمدهم الله بما سألوا من

---

(١) العقيدة والفكر الإسلامي، د. محمد هاشم سلطان، ص١١٢.

النعم والزروع والثمار فنسوا نعمة المنعم وجحدوها ظلماً وعلواً.

ذكر ابن كثير في تفسيره عن قوم سبأ أنهم كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، فبعث الله لهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فأعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل العرم والتفرق في البلاد [1].

(١٠) تحذير القرآن الكريم للأمة الإسلامية من معتقد قوم عاد

ولقد اغتر قوم عاد بكثرة عددهم وقوة أجسامهم وأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين، فدلهم ذلك المعتقد الباطل إلى الكفر بالله وإنكار ما أرسل الله به من الآيات البينات، وجحدوا نعمة الموجد ونعمة الإيجاد بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سورة فصلت: آية ١٤].

ولقد بعث الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة الشعراء: آية ١٢٦].

ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ثم شرع يذكرهم بنعم الله في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: آية ١٣٢ ـ ١٣٥].

فبإنكارهم وجحودهم أرسل الله عليهم ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد فكانت سبباً في إهلاكهم من جنسهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، سورة سبأ، الآيات ١٥ ـ ١٩.

أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [سورة فصلت: آية ١٥ ـ ١٦][1].

ذكر ابن كثير في تفسيره عن العقاب الذي حل بهم أن الله سبحانه وتعالى فتح عليهم من الريح التي أرسلها لعقابهم بمقدار ألف ثور، عتت عن الخزنة فخرجت بغير حساب، فأذن لها في ذلك فسلكت وحصبت بلادهم وكل شيء لديهم، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة: آية ٦ ـ ٧].

أي بقوا أبداناً بلا رؤوس، فهي تأتي على الرجل فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات فلم يغن عنهم ذلك من الله شيئاً[2].

(١١) تحذير القرآن الكريم للأمة الإسلامية من معتقد قوم مدين

لقد وضح القرآن الكريم في قصة قوم مدين بأنهم تيقنوا أن أسباب السعادة والعزة بالجهد على التجارة ومواردها، وانساقوا في تحصيلها بمعصية الله تعالى وأبخسوا الناس أشياءهم وعتوا في الأرض مفسدين، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام يأمرهم بطاعة الله ﷻ وبإيفاء المكيال والميزان، فكذبوه بقولهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [سورة الشعراء: آية ١٨٥، ١٨٦].

فأنزل الله عليهم عقابه بقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء: آية ١٨٩].

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الشعراء، ج٣، آية ١٣٢ ـ ١٣٥.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الحاقة، ج٤، آية ٦ ـ ٧.

قال ابن عباس ﷺ: «**بعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم ذلك عذاب يوم الظلة**»[1].

(١٢) تعليم النبي ﷺ الأمة الإسلامية النظرة الغيبية في ترسيخ اليقين

لقد اشترك المسلم مع الكافر والحيوان بنور البصر، إذ أن الكافر يرى الأشياء بنور البصر، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [سورة البقرة: آية ٩٦] نور البصر الذي لا يتعدى المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، أما المسلم المؤمن بالله المتيقن عليه يرى حقائق الأشياء بنور البصيرة الذي يدل الإنسان إلى سعادة الدارين، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ١ ـ ٣].

وحتى توزن الدنيا بميزان الشريعة لا بالوقوف على ظواهر الأشياء بينت السنة النبوية تعليماً للأمة ذلك الأمر، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما صبي يرضع من أمه فمر رجل على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الصبي الثدي وأقبل إليه وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع** ـ، يقول أبو هريرة فكأني أنظر إلى رسول الله وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها ﷺ، ـ ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنت سرقت، وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه : «**اللهم لا تجعل ابني**

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، سورة الشعراء، آية ١٨٩.

مثلها، فترك الصبي الرضاعة ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها، إن ذلك الرجل جبار وأن تلك الأمة مظلومة»[1].

هذه قبسات نبوية في تعليم الأمة الإسلامية دروساً في اليقين كي لا تغتر بالمظهر وتنسى الجوهر، فلو نظرنا إلى أم الصبي بقولها: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فهو دليل على أنها لم تقف إلا على ظواهر الأشياء الدنيوية التي لا تتعدى نور البصر المحدود، فأفقدها ذلك نور البصيرة الذي لا ترى به ظواهر الأشياء بمعاني الشريعة، وتأمل قول الصبي: «**اللهم لا تجعلني مثله**» معلماً للأمة جميعاً كي لا تنظر للأشياء نظرة دنيوية قاصرة، وإنما تنظر إليها بنظر الشرع الذي يربط الدنيا بالحقائق الغيبية.

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: «مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال رجل من أشراف الناس: هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل فقال له رسول الله: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن تكلم لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»[2].

(١٣) تحذير الأمة الإسلامية من ترك مقصد العبادة لطلب الدنيا وأسبابها

علينا أن نعلم أن الدنيا مهما تزخرفت وتزينت إلا إنه سيأتي عليها يوم تكون فيه كسفة الفناء، قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس: آية ٢٤] وقال عليه السلام: «**حقاً على الله ما ارتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**»(١).

وهذه دلالة على أن المشتغل فيها التارك لأمر ربه في تحصيلها أورد نفسه في طريق المذنبين ودرب الهالكين.

يقول أبو الفضل أحمد ابن عطاء: «**كيف يشرق قلب صور الكائنات منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته**»(٢).

أي من أحب الدنيا ووقع في أسرها وبذل جهده في تحصيلها وغلب عليه الفكر في طلبها، أنى له الرحيل إلى ربه والامتثال لأمره، والرحيل مع التكبيل لا يجتمعان، فما دام القلب محبوساً بالميل إلى شهوات الدنيا كيف تطير أشواقه إلى لقاء ربه؟.

ناهيك عن العبادات الصورية التي خرجت عن جوهرها وأضحت جسد بلا روح، الوجه مستقبل القبلة والقلب مستقبل لحطام الدنيا، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٧٧] وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: آية ٣٧].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة هود: آية ١٠٢](٣).

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) الحكم العطائية، ص٨.

(٣) متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٨٢] قال سهل التستري في تفسير الآية: «**أي نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لا يشعرون**»[١].

وورد في الأثر إن الله إذا غضب على عبد شغوف بطلب الدنيا وسع له في رزقه، وإذا اشتد في غضبه عليه جعل رزقه من حرام ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ٤٤].

قال تاج الدين أحمد ابن عطاء الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٧٨] أي كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة [٢].

وقال في كتابه التنوير: والنفس من شأنها التشبه والمحاكاة والتزين بصفات من قارنها والمضاهاة، فصحبتك للغافلين معينة لها على وجود الغفلة، إذ الغفلة ملائمة لها من أصل الوضع، فكيف إذا انضم إلى ذلك سبب مخالطة الغافلين وقد تجد من نفسك ـ أيها الأخ وفقك الله ـ أنه لا يستوي حالة خروجك من منزلك وعودك إليه، وأنت في حين خروجك تغلب عليك الأنوار وشرح الصدر والعزم على الطاعة والزهد في الدنيا، فتجدك إذا رجعت لست كذلك ولا في ما هنالك وما ذاك إلا لدنس المخالطة وانغماس القلوب في ظلمة الأسباب، ولو كانت الأسباب والمعاصي إذا ذهبت ذهب أثرها لم تعوق القلوب عن المسير إلى الله تعالى بعد انفصالها ووجود زوالها،

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٥٣.

وإنما ذلك كالنار: ربما انقضى الإيقاد وبقي السواد ويحتاج المتسبب إلى شيئين علم وتقوى.

فالعلم: يعلم به الحلال والحرام، والتقوى تصده عن ارتكاب الآثام، فأما حاجته إلى العلم فإنه يحتاج إلى الأحكام المتعلقة بالمعاملة بيعاً وسلماً وصرفاً، وما يتعلق بذلك مع ما يحتاج إليه من أحكام الواجبات والفروض المعينات.

*** أمور ينبغي للمتسببين أن يلتزموها:**

الأول: ربط العزم مع الله تعالى قبل الخروج من المنزل على العفو عن المسيئين إليه، إذ الأسواق محل المخاصمة والمقاولة.

الثاني: ينبغي له أن يتوضأ ويصلي قبل خروجه، ويسأل الله السلامة في مخرجه ذلك، فإنه لا يدري ماذا يقضي عليه، فإن الخارج إلى السوق كالخارج إلى المصاف، فينبغي للمؤمن أن يلبس من الاعتصام بالله تعالى والتوكل عليه دروعاً صائنة تقيه سهام الأعداء.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠١].

الثالث: ينبغي له إذا خرج من منزله أن يستودع الله أهله ومسكنه وما فيه فإنه حري أن يحفظ ذلك عليه، وليذكر قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: آية ٦٤] وليذكر قوله ﷺ «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والولد والمال**»[1] فإنه إذا استودعهم الله فحري أن يرجع فيجدهم كما يحب بإذن الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي دعوات، ٤٦ والدارمي (استئذان، ٤٢).

الرابع: يستحب له إذا خرج من منزله أن يقول «**بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله**» فإن ذلك كان ميئوساً للشيطان منه.

الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليجعل ذلك شكراً لنعمة القوة والتقوى الذين وهبهما المولى تبارك وتعالى له ويذكر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: آية ٤١] فمن أمكنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث لا يصل إليه أذى في نفسه أو عرضه أو ماله، فهو ممن مكّن في الأرض والوجوب متعلق به.

السادس: أن يكون مشيه بالسكينة والوقار لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الفرقان: آية ٦٣] وليس ذلك خاصاً بالمشي بل المطلوب منك أن تكون أفعالك كلها تقارنها السكينة ويلازمها التثبيت.

السابع: أن يكثر من ذكر الله في السوق، وكان بعض السلف يركب بغلته ويأتي السوق فيذكر الله ثم يرجع لا يخرجه إلا ذلك.

الثامن: أن لا يشغله ما هو من المبايعة والمعاش عن النهوض إلى الصلاة في أوقاتها جماعة، لأنه إذا ضيعها اشتغالاً بسببه استوجب المقت من ربه، ورفع البركة من كسبه، ويستحي أن يراه الحق تبارك وتعالى مشغلاً بحظوظ نفسه عن حقوق ربه، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكون في بيته يخصف النعل ويعين الخادم، فإذا نودي للصلاة قام كأنه لا يعرفنا، وقد كان بعض السلف يكون في صنعته فربما رفع المطرقة فسمع المؤذن فرماها من خلفه لئلا يكون ذلك شغلاً بعد أن دعي إلى طاعة ربه.

التاسع: ترك الحلف والإطراء لسلعته، وقد جاء في ذلك الوعيد الشديد وقد قال ﷺ: «**التجار هم الفجار إلا من بر وصدق**»[1].

العاشر: كف لسانه عن الغيبة والنميمة، وليذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [سورة الحجرات: ١٢] وليعلم أن السامع للغيبة أحد المغتابين، فإن اغتيب أحد بحضرته فلينكر عليه فإن لم يسمع منه فليقم ولا يمنعه الحياء من القيام من ذلك المجلس[2].

رابعاً: البراءة من الحول والقوة إلا حول الله تعالى وقوته

(١) اعلم وفقك الله أن عباداً خرجوا عن منازعة الأقدار، وجردوا أنفسهم من تدبير النفس والشيطان والأهواء، فهم على مراد الله في كل حال، عرفوا أنهم في مقام العبودية لله تعالى على الاستقامة والاستسلام، فسطعت أنوار بواطنهم على ظواهرهم، فكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله تعالى حين وجدت، وكانوا على ما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحديد: آية ٢٣].

قال تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم في كتابه التنوير:

«**اعلم أن هلاك ابن نوح عليه السلام إنما كان لأجل رجوعه إلى تدبير نفسه وعدم رضاه بتدبير الله الذي اختاره لنوح عليه السلام ومن كان معه في السفينة، فقال له نوح عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (بيوع ،٤) وابن ماجه (تجارات ،٣) الدارمي (بيوع، ٧) وأحمد (٣، ٤٢٨، ٤٤٤).

(٢) التنوير في إسقاط التدبير ص ٥٠ (بتصرف).

﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [سورة هود: آية ٤٢، ٤٣] فآوى في المعنى إلى جبل عقله، ثم كان الجبل الذي اعتصم به صورة ذلك المعنى القائم به فكان كما قال الله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [سورة هود: آية ٤٣].

الغرق الظاهر بالطوفان وفي الباطن بالحرمان، فاعتبر أيها العبد بذلك، فإذا تلاطمت عليك أمواج الأقدار فلا ترجع إلى جبل عقلك الباطل لئلا تكون من المغرقين في بحر القطيعة، ولكن ارجع إلى سفينة الاعتصام بالله والتوكل عليه، فإنك إذا فعلت ذلك استوت بك سفينة النجاة على جودي الأمن، ثم تهبط بسلامة القربة وبركات الوصلة عليك وعلى أمم ممن معك، وهي عوالم وجودك فافهم ذلك ولا تكن من الغافلين واعبد ربك ولا تكن من الجاهلين»[1].

إن الله جل وعلا خلقنا بقدرته وإرادته وأخرجنا من بطون أمهاتنا بأمره فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة النحل: آية ٧٨] أي لا نعلم شيئاً عن الحياة التي نعيش فيها، والأقدار التي كتبت علينا، أخرجنا من بطون أمهاتنا من غير سن تقطع ولا رجل تمشي ولا يد تبطش، من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الروم: آية ٥٤] ثم بعد هذه المراحل أخبر جل وعلا

(١) التنوير في إسقاط التدبير، ص٣٠ ـ ٣١.

بالمصير الحتمي على البشرية في قوله تعالى :﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون: آية ١٥، ١٦].

قال الشاعر:

تذكر نعمة الرب عليك إذ كنت نطفة ... وفوض إليه الأمر واعلم بأنه
ولا تنس تصويره لشخصك في الحشى ... يصرف الأحكام ويفعل ما يشا

ومما دلك عليه سبحانه أنه قهر ابن آدم بكبريائه وعظمته بأنه أجرى الأقدار بما كان وسيكون عليه في الحياة الدنيا.

عن عبد الله بن عمرو ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»[1].

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل شيء بقدر حتى العجز والكيس**»[2].

(٢) عدم إسقاط إرادة الإنسان في اختيار طريق الهدى من الضلالة : ـ

يقول ابن القيم رحمه الله: «**إن الإرادة الدينية الشرعية تتعلق بالأمر بأن يريد من العبد فعل ما أمره به، والله سبحانه يحبها وقعت أو لم تقع وهي المتضمنة للمحبة والرضا المتناولة لجميع ما أمر به شرعاً وديناً، وهي مختصة بالإيمان والعمل الصالح**» انتهى كلامه[3].

اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ مادمنا في دار البلاء والقدر جار علينا لا محالة، فهو سبحانه وتعالى ما أسقط إرادتنا في اختيار طريق

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) العقيدة الواسطية للسلمان، ص ١٤٧.

الهدى من الضلالة، والنور من العمى، قال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [سورة الدهر: آية ٣] وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [سورة البلد: آية ١٠] وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٧].

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**»، قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فيسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فيسر لعمل أهل الشقاوة**»[1].

(٣) وحدانية الله في الخلق والتدبير

قال جلا وعلا: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: آية ٦٨] ولقد أعلمك سبحانه أن القدر لا يجري على حسب تدبيرك بل لله الأمر جميعاً، ولا يبني بناء على غير قرار، متى يتم بنيانك والأقدار تهدمها، متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟ قال ابن القيم رحمه الله: بل الأحكام ثلاثة:

أ. حكم شرعي ديني.

وهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء والوضع والتخيير[2].

فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل الانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) مدخل الفقه الإسلامي لمحمود الطنطاوي، ص ٥.

ب. الحكم الكوني القدري.

والذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه، فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن، ولا يسالم البتة فينازع حكم الحق بالحق للحق فيدافع به وله، كقول عمر ﷺ حينما عوتب عن أمر الطاعون، فقال: نفر من قدر الله إلى قدره، ومثال ذلك أيضاً إذا جاء قدر الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ودفعه بقدر من الأكل والشرب واللباس، فيكون قد دفع القدر بالقدر.

ج. الحكم القدري الكوني.

وهو الذي يجري على العبد بغير اختيار، ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته، فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وأن القدر قد أصاب مواقعه وحل في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به وأوجبه ذلك عدل الله وحكمته وعزته وعلمه. انتهى كلامه[1].

قال تعالى عن نبيه ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٨٨] وعن أبي موسى ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟**» قلت بلى يا رسول الله، قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»[2] وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله فقال: علمني كلاماً أقوله قال ﷺ: «**قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله**

(١) طريق الهجرتين لابن القيم، ص٥٢، ٥٣، ٥٤.

(٢) الحديث متفق على صحته.

كثيرا، وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم»[1].

(٤) عدم منازعة الأقدار وتفويض الأمر لله على كل حال

إن الله هو المتولي لتدبير هذه الأكوان عاليها وسافلها وغيبها وشهادتها، وكما سلمْتَ له تدبيره في عرشه وكرسيه وسماواته وأرضه، فسلم له تدبيره في وجودك إلى هذه العوالم، فإن نسبة وجودك إلى هذه العوالم نسبة توجب تلاشيك، كما أن نسبة السمٰوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي والسمٰوات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فماذا عسى أن تكون أنت بين هذه الأكوان؟.

فاهتمامك بنفسك وعدم إسقاط التدبير مع الله جهل منك به تعالى بل الأمر كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الزمر: آية ٦٧][2].

إن إبراهيم عندما قال له ربه: ﴿أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٣١] فلما ابتلاه ربه بالإلقاء في النار أتاه جبريل عليه السلام لينصره قال: ألك حاجة؟ قال إبراهيم: أما إليك فلا وأما إلى الله (فحسبي الله ونعم الوكيل).

قال أحمد بن عطاء: «**فلم ينتصر بغير الله ولا جنحت همته لغير الله بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله عن تدبيره لنفسه ولغيره**» لذلك تدخلت النصرة الغيبية مباشرة من عند الله الذي يجعل في مكان

---

(١) التنوير في إسقاط التدبير، ص ٣٨.

(٢) التنوير في إسقاط التدبير، ص ٣٨.

الشقاء عزة وفي مكان العزة شقاء ونصره في مكان الحرق وهو الضد الضعيف، حيث قال جل وعلا للنار مباشرة من عنده.

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأنبياء: آية ٦٩].

قال ابن عطاء: أن الله أمرنا أن لا نخرج عن ملته، وأن نراعي حق تسميته أمراً منه بقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨][1].

(٥) الشورى تسقط الحول والقوة وتوصل الإنسان إلى توحيد الله تعالى:

أمر الله تعالى بالشورى وهي التي تؤدي بمدلولها الضمني إلى إسقاط إرادة الاختيار مع الله تعالى، وإن ملك الإنسان الأسباب الدنيوية ومقدرات التمكن لفعل الشيء المراد، إلا أنه مخلوق غير خالق ومرزوق غير رازق، وموهوب غير واهب، وإن الأخذ بالشورى توصل المخلوق إلى العبودية والاحتياجية المطلقة لصاحب الأمر والتدبير، وهو الله جل جلاله قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٩].

ونضرب مثلاً بملكة سبأ بلقيس بأنها أخذت بنظام الشورى مع أنها تملك أسباب الملك والمقدرات الحياتية، فبذلك خرجت من تدبير نفسها واعتمادها على أسبابها في الملك وأسقطت الحول والقوة من فكرها فقالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [سورة النمل: آية ٣٢] فأدخلها الله الإسلام وخلد ذكرها عبر الزمان إذ أخبر عنها سبحانه بقولها: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة النمل: آية ٤٤] وانظر إلى فرعون باعتماده على أسباب ملكه وتجبره بأنه رفع

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨.

نفسه من مقام العبودية إلى مقام الألوهية ولم يخرج تدبير نفسه إلى تدبير الله ﷻ فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [سورة غافر: آية ٢٩].

وإن القول بالألفاظ الثلاث أنا ـ ولي ـ وعندي، مهلكات! ومثال ذلك:

قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة صٓ: آية ٧٦] فحلّت عليه اللعنة إلى يوم الدين.

وقال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥١] فهو بذلك يتقلب في النار غدواً وعشياً.

وقال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [سورة القصص: آية ٧٨] فخسف الله به وبداره الأرض.

(٦) المنهاج الرباني في تعليم الصحابة إسقاط التدبير مع الله في ميدان البلاء والفتنة:

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٢] لقد غرس الإسلام عقيدة التوحيد والانقياد الكامل إلى الله ظاهراً وباطناً في الرعيل الأول بميدان البلاء والتمحيص، ومن ذلك المنهاج الرباني في تعليم الصحابة البراءة من الحول والقوة إلى حول الله وقوته، حيث أخبر تعالى عن نبيه وصحابته يوم بدر بقوله جل وعلا: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الأنفال: آية ٥، ٦].

لقد جمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، عدد

قليل، وعدة قليلة، لما يريد الله تبارك وتعالى، من تربيتهم على توحيده، وتجريد القلوب من الاعتماد على غيره، وإخراج الطائفة المنصورة التي تقود العالم لنصرة دينه، وإعلاء كلمته.

ذكر ابن كثير في تفسيره: أوحى الله إلى نبيه يعده إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفير، فأراد أحد الصحابة أن يستأذن ليأخذ عدة الحرب، فقال للرسول ﷺ: أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالاً لم نستعد له، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: آية ٦] (١).

ثم جمع النبي ﷺ الصحابة وأمرهم بالشورى بقوله: «**أشيروا علي أيها الناس**» فقال المقداد بن عمرو رضي الله عنه: امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٢٤].

ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: فامض يا رسول الله لما أمرك الله به، وفوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك» (٢).

وذكر ابن كثير في تفسيره: «أن رسول الله ﷺ دخل خيمته ونظر إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قام ﷺ مستغيثاً بربه:

«**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً**» (٣).

فمازال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فأتاه

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الأنفال (٦، ج٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس، تفسير ابن كثير [سورة الأنفال: آية ٩ ـ ١٠].

أبو بكر ﷺ وأخذه بردائه والتزمه من وراءه، وقال: إن الله سينجز لك ما وعدك فأنزل الله جل وعلا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: آية ٩ ـ ١٠] وما ذلك إلا ليبين للناس أن نصرة الله لأوليائه وأهل طاعته ماضية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تنزيل النصرة بكمال التوحيد وكمال الأعمال

فالشاهد من غزوة بدر والناظر إلى تلك الأحداث التي سطرها التاريخ بمداد من ذهب وتناقلتها رياح اليقين لتصنع الأساطير في تلك الكتيبة الإيمانية التي نقلت التوحيد من غزوة بدر إلى العالم أجمع، وما هو إلا بيان ومنهاج للأمة الإسلامية بأن النصر لا يتحقق إلا بكمال الاستسلام لأحكام الله. كما فعل النبي ﷺ وصحابته ﷺ أجمعين بأنهم تيقنوا على نصرة الله الغيبية في قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [سورة الأنفال: آية ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: آية ١٧].

فبعدما استسلم الصحابة لحكم الله، وتجردت قلوبهم مما سواه، وتوحدت أفكارهم هجرة ونصرة لله، وخرجوا من تدبير أنفسهم إلى تدبير الله لهم، تنزلت النصرة الغيبية بقوله تعالى للملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [سورة الأنفال: آية ١٢].

واعلم أن الملائكة بحركتها وارتفاعها ونزولها محتاجة إلى الله ومفتقرة إليه، وتأمل في قوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: آية ٩] فأثبتت الآية الكريمة أن الأمر بتنزيل الملائكة لا يكون إلا بأمر الله وتحت مشيئته جل وعلا، ولتثبيت قلوب الموحدين من أمة نبيه ﷺ.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة مريم: آية ٦٤] يدلك على قهرية الله وحكمته في الخلق والتدبير، وأنه لا يتحرك في الكون ساكن ولا يسكن متحرك وإن دق وصغر إلا تحت مشيئته وقهريته.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السمٰوات منه رجفة أو قال: رعدة شديدة خوفاً من الله ﷻ، فإذا سمع ذلك أهل السمٰوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر على سماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل إلى حيث أمره الله ﷻ**»[1].

ذكر الشيخ العثيمين في كتابه القول المفيد: قال من فوائد الحديث:

١ ـ إثبات الإرادة لقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ وهي قسمان: شرعية وكونية، والفرق بينهما: أولاً من حيث المتعلق: فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله تعالى سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية فتتعلق

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٢، ٩١) وابن كثير في تفسيره (٦، ٥٠٤).

بما يقع سواء كان مما يحبه الله أو مما لا يحبه.

٢ ـ أن المخلوقات وإن كانت جماداً تحس بعظمة الخالق، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: آية ٤٤].

٣ ـ إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: «**ماذا قال ربكم**» ويجاوبون: قال «**الحق**».

٤ ـ إثبات تعدد السمٰوات لقوله: «**كلما مر بسماء**».

٥ ـ أن لكل سماء ملائكة مخصصين لقوله: «**سأله ملائكتها**».

٦ ـ فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي.

٧ ـ أمانة جبريل عليه السلام حيث انتهى بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل.

٨ ـ إثبات العزة والجلال لله عز وجل، والعزة بمعنى الغلبة والقوة. انتهى كلامه[1].

خامساً: نصائح عامة حول أقسام التوحيد الثلاث.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ٢٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [سورة النجم: الآيات ٤٣ ـ ٤٨].

اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن «**لا إله إلا الله**» ليست ألفاظاً تحفظ أو كلاماً يسمع، وإنما منهاج حياة يتوقف عليه مصير الثقلين

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ص٣١٢ (بتصرف يسير).

خلق الكون لأجلها، ومن أجلها قال سبحانه: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة الشورى: آية ٧].

لذلك وجب علينا أن نعتقد أن جميع المخلوقات من ملائكة وأنبياء وأولياء وجن وإنس لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا نشوراً، قال سبحانه عن نبيه ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨].

وأن نحذر من كل قول أو فعل يخالف الشريعة الغراء، قال ابن عباس رضي الله عنه: «**الشرك بالله أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، ومن قال: لولا الكلب لسرقنا أشرك بالله**»(١).

قال النووي رحمه الله: لا يجوز الحلف بمخلوق كان كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء والحياة والروح والرأس وحياة السلطان وتربة فلان وغيرها (٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٤).

وعلينا أن نرضى بالقدر خيره وشره من الله، قال سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا

---

(١) من كتاب التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، ص٧٧.
(٢) رياض الصالحين، باب: لا يجوز الحلف بمخلوق، ص٥٤٤.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [سورة الحديد: آية ٢٣] ولنعلم أنه ما أصابنا من حسنة فمن الله، وما أصابنا من سيئة فمن أنفسنا، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس: آية ٨].

وعلينا أن نستسلم لقهره وجلاله في السراء والضراء، لأنه حذرنا من قوم قال عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [سورة الحج: آية ١١].

وأن نأخذ الفتوى من أهل العلم الواقفين على حدود الله المتورعين عن مواطن الشبهات وعن المذهبية والخلاف، قال سبحانه عن أقوام قبلنا:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: آية ٣١].

فإن الفرقة الناجية لا تقدم كلام أحد على كلام الله ورسوله، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [سورة الحجرات: آية ١] قال ابن عباس: أخشى أن تتنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر، وقال عمر رضي الله عنهما.

الفرقة الناجية تعتبر التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة والاستعانة والدعاء وقت الشدة والرخاء والذبح والنذر والتوكل والحكم بما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع العبادة هو الأساس الذي تبنى عليه الدولة الإسلامية الصحيحة، ولا يمكن النصر لأي جماعة تهمل التوحيد، ولا تكافح الشرك بأنواعه.

الفرقة الناجية يحيون سنن الرسول ﷺ في عباداتهم وسلوكهم وحياتهم، فأصبحوا غرباء بين قومهم، كما أخبرنا عنهم عليه الصلاة

والسلام بقوله: «**إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء**»[1].

الفرقة الناجية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فهي تنكر الطرق المبتدعة والأحزاب الهدامة التي فرقت الأمة وابتدعت في الدين وابتعدت عن سنة الرسول ﷺ وأصحابه[2].

ومن نعمته عليك أن هداك للإسلام، وجعلك موحداً، ولم يجعلك كافراً، فطلب منك سبحانه: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: ٨٧].

فهو الذي وهب لك الجوارح وأفقدها غيرك، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء: آية ٣٦] وهو الذي وهب لك الصحة فاجتهد بالعبادة والإنابة إليه، فقال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر: آية ٥٤].

وهو الذي وهب لك المسكن، وغيرك في العراء، فأقم أمر الله فيه، وتذكر قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [سورة الأحزاب: آية ٣٤] وتذكر قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم: آية ٣٤].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الفرقة الناجية لمحمد زينو ص ١٧ (بتصرف).